فقد كانت أحوال المسلمين في الأندلس تسير منذ بداية القرن السّادس الهجريّ في طريق التّدهور والضّعف ، وألحّت عليهم قوى المسيحيّة الأوربيّة التي شرعت في انتزاع الحواضر الأندلسيّة واحدةً بعد أخرى ، فكانوا يبثّون شجونهم ويُفْرِغون همومهم في هذه الرّسائل التي يتوسّلون بها إلى الرّسول، ويستمدُّون بها العون منه .

وهذا هو العامل الرّئيسيُّ الذي جعل فنّ المدائح النّبويّة يعود للازدهار في الأندلس والمغرب منذ القرن السّادس الهجريّ . ومن أولي هذه القصائد قصيدتان لابْن السّيدِ البَطَلْيَوْسِيّ (ت ٥٢١) ، في مخاطبة مكة ، والتّعبير عن الشّوق إلى زيارة البِقاع المقدّسة ، مع الحديث عن سيرة الرّسول ﷺ ، ومطلع الأولى :

أ مَكّةُ تَفْدِيكِ النُّفوسُ الكَرَائِمُ ولا بَرِحَتْ تَنْهَلُّ فيكِ الغَمَائِمُ

ومطلع الثانية :

إلَيْكَ أفِرُّ من ذُلّي وذَنْبِي فَأَنْتَ إذا لَقِيتُ اللّهَ حَسْبِي [1]

وفي هذه الظّاهرة نرى تشابهًا بين المشرق والمغرب ، في العامل الذي أدّى إلى إكثار الأدباء من المديح النّبويّ ، والتّوسُّل للرّسول ، والبَوْح له بالهموم والأشجان ؛ فقد كان في بلاد المشرق ما أصاب الأمّة من مِحْنة الغزو الصّليبيّ القادم إليها من الغرب ، والهجوم التّتَريّ الكاسح المنطَلِق من الشّرق ، وفي الأندلس ما تعرّضت له البلاد من زَحْفٍ مسيحيّ لم تفلح في صَدّ تيّاره جهودُ المُرابِطين ثم المُوَحّدين ، وهكذا شعر المسلمون هنا وهناك بالضّعف وقلّة الحيلة، ولم يكن لدى الأدباء والشّعراء – وهم ضمير الأمّة ولسانها النّاطق – إلا أن يتوجّهوا إلى الرّسول ﷺ يستشفعون به ويطلبون منه العون والنُّصْرة .

ولعلّ الأديب الكاتب الشّاعر محمد بن مسعود ، المعروف بابن أبي

(١) أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٤٧-١٤٨ ، و ١٤٨-١٤٩ .